الباب الرابع

دور ابن المعتز في بناء علم البديع بكتابه البديع

الفصل الأول

منهج كتاب البديع لابن المعتز

بحث الباحث في هذا لفصل فى البديع في عصر ابن المعتز فبدأ في النصف الثاني من قرن الثالث الهجري إن ابن المعتز قد جمع فنون البديع ووضحها وألف فيها كتابا تحت الاسم "البديع" سنة أربع وسبعين ومائتين[1] وقد مضى منذ السطور الأولى فيه يعلن صنفه ليدل دلالة قاطعة على أن ما يكثر منه المحدثون مما يسمى بديعا موجودا من

[1] الدكتور محمد حسن عبد الله، المرجع السابق، ص: ٥٩٣

قديم في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ومن روائع الادب المنثور.[2]

وقد الف "البديع" ما ذهب اليه معاصروه من أن هذا الفن طارئ وان بشارا ومسلما وابا نواس ومن تبعهم لم يسبقوا اليه. ولكي يبرهن على ذلك قدم في ابواب كتابه امثلة منه. يقول في مقدمة كتابه:

"وقد قدمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن واللغة واحاديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلم سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك

[2] بدوي طبانة، المرجع السابق، ص: ٩٤

[3] الدكتور احمد مطلوب، المرجع السابق، ص: ١٩٩

عقبى الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت و البيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل.[٤]

ولقد كان ما دفع ابن المعتز الى تأليف هذا الكتاب هو تلك الخصومة بين القدامى والمحدثين أي بين انصار القديم والحديث.[٥]

ان هذا الكتاب هو اول كتاب في البلاغة العربية بالمعنى الصحيح لأنه لم يجاوز في موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغي[٦] على خلاف الكتب التي سبقته والتي ظهرت بعده في المرحلة التأليف.[٧]

وقد دفع ابن المعتز إلى تأليف كتابه هذا امران و هما كما يلي:

---

[٤] ابن المعتز، المرجع السابق، ص. المقدمة.

[٥] الدكتور بدوي تبانه، المرجع السابق، ص. ٩٥.

[٦] نفس المرجع، ص. ٩٤.

[٧] نفس المرجع، ص. ٩٥.

١. إنه أراد أن ينقض أدعاء الشعراء المحدثين إنهم قد اقترحوا بديعا وانهم أول من إستعملوه فى الشعر فأثبت أن البديع موجود منذ أقدم العصور فى لغة العرب وفى لغة القرآن الكريم.

٢. إنه أن يقاوم نشأة الإفرط فى البديع التى تجلت لدي بعض الشعراء المحدثين كأبى تمام، فدعا إلى القصد والاعتدال فى استعماله على نحو ما فعله القدماء.[٨]

ويقسم ابن المعتز كتابه هذا على قسمين:

القسم الأول: ذكر فيها خمس أنواع باسم البديع وهي الاستعارة والتجنيس والمطابقة أو الطباق ورد الإعجاز الكلام على

---

[٨] محمد غفران زين العام، مذكور فى تاريخ علم البلاغة العربية، ص: ٩

ما تقدم والمذهب الكلامي.[9] نراه حين ينتهي من بيانها واستقصائها في الأمثلة والشواهد يقول:

"قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد".[10]

القسم الثاني: اتبع هذه الفنون بثلاثة عشر فنا سماها محاسن الكلام وهي الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريف

---

[9] الدكتور احمد مطلوب، المرجع السابق، ص: ١٩٩-٢٠٠.

[10] ابن المعتز، المرجع السابق، ص: ٥٧-٥٨.

والكناية والإفراط في الصفة وحسن التشبيه ولزوم ما يلزم وحسن الابتداء[11].

فتلك هي ثمانية عشر نوعا من البديع مسبوق إليها ممن تقدمه من العلماء إلا خمسة فنونا جديدة وكانت من ابتكاره وهي رد الإعجاز علي الصدور، تأكيد المدح بما يشبه الذم، الهزل الذي يراد به الجد، تجاهل العارف، إعناط الشاعر نفسه، أو لزوم ما لا يلزم[12] فتلك أنواع خمسة كان ابن المعتز له الفضل في اختراعها والباقي مسبوق إليه من العلماء القدماء.

رأي الباحثون أن سبب تقسيم ابن المعتز الألوان البديعية إلى قسمين يرجع إلى ثلاثة أمور:

---

[11] دكتور طبلة، المرجع السابق، ص: ٩٦.

[12] حفني محمد شرف، ابن أبي الإصبع المصري بين علماء البلاغة، ص: ٥٨.

١- خوفه أن يتهم بالجهل بأنه لا يعرف هذه الالوان البديعية إلا القسم الأول فقط فزاد عليها القسم الثاني.

٢- ظنه أن القسم الأول يغلب وجوده في الشعر أما القسم الثاني فعام يشمل الشعر والنثر.

٣- ظنه أن القسم الأول قد عرف قبله فذكرها وحدها، ثم ذكر الثاني ليدل على فضله لأنها ترجع إلي ما اهتد إليه هو.[١٣]

[١٣] الأستاذ محمد عفران زين العالم، المرجع السابق، ص: ١٠

الفصل الثاني

محتويات كتاب البديع لابن المعتز

يبدأ الباحث في هذا الفصل بذكر تلك الأنواع التي أطلق عليها ابن المعتز اسم البديع في كتابه البديع مبينا كل لون واستند الباحث إلي أمثلة وشواهد وردت في هذا الكتاب على امتداد البحث في هذا الفصل هو بدأ في الباب الأول الحديث عن الاستعارة وعرفها بأنها "الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها"[1] ومن أمثلتها قوله تعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب" . ثم الثاني من البديع هو التجنيس وعرفه "أن تجئ

[1] ابن المعتز، المرجع السابق، ص: ٢.

الكلمات تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها"[٢]. ومن بين الأمثلة التي ذكرها قول الشاعر:

"وسميته يحي ليحي ولم يكن إلي ردّ أمر الله فيه السبيل".

والباب الثالث من البديع هو المطابقة ولكنه لم يذكر تعريفا لها وإنما ذكر عن الخليل بن أحمد معناها اللغوي يقال طابقت بين شيئين إذا جمعت هما على حذو واحد.[٣] ومن هذه الأمثلة قال رسول الله لأنصار إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع.

ثم تناول في الباب الرابع من البديع ما سماه ردّ الإعجاز الكلام على ما تقدّمها لم يذكر ابن المعتز تعريفا لها وقد عرفه المتأخرون بأنه

---

[٢] ابن المعتز، نفس المرجع، ص: ٢٥.

[٣] نفس المرجع، ص: ٣٦.

أن يجعله أحد اللفظين المتشابهين في آخر البيت والآخر في أول صدره أو حشوه أوآخره أو في أول العجز.[4] مثل قول الشاعر:

"سريع إلي ابن العم يشتم عرضه وليس إلي داعي الندى بسريع"[5]

وفي الباب الخامس ما سماه الجاحظ المذهب الكلامي ولا يذكر ابن المعتز تعريفا له في كتابه من أمثلة ذلك قول الشاعر:[6]

لكل امرئ نفسان نفس الكريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

ثم ذكر ابن المعتز فنونا بديعية اخرى عدّدها ثلاثة عشر غير الخمسة السابقة سماها محاسن الكلام وتشمل على:

- الالتفات مثل قول تعالى: أن يشاء يذهبكم ويأتي بخلق جديد[7]

---

[4] نفس المرجع، ص: ٥٦.

[5] نفس المرجع، ص: ٥٨.

[6] نفس المرجع، ص: ٥٤-٥٣.

[7] نفس المرجع، ص: ٥٩.

- الاعتراض مثل ذلك قول الشاعر:

فظلوا بيوم دع أخاك بمثله علي مشرع يروى ولما يصرّد[٨]

- الرجوع، وهذا مثل قول أبي نواس:

يا خير من كن ومن يكن إلا النبي الطاهر الأمين[٩]

- حسن الخروج مثل ذلك قول الشاعر:

خليل من جرم أعينا أخا كما علي دهره إن الكرام معين[١٠]

- تأكيد المدح بما يشبه الدم، وهنا كقول الجعرى:

فتي كملت أخلاقه غير انه جولا فما يبقي من المال باقيا[١١]

- تجاهل العارف مثال ذلك قول زهيرى:

وما أدرى وسوف أخالى أدرى أقوم آل حصن أم نساء[١٢]

---

[٨] نفس المرجع، ص: ٦٠.

[٩] نفس المكان

[١٠] نفس المرجع، ص: ٦١.

[١١] نفس المرجع، ص: ٦٢.

[١٢] نفس المكان

- هزل يراد به الجد، مثال قول أبي عتاهية:

ما سلم نفسك إلا من تباركها وما عدولك إلا من يرجيكا[١٣]

- حسن التضمين، مثال قول الاخيطل:

ولقد سما للخرمي فلم يقل بعد الوغا لكن تضايق مقدمي[١٤]

- التعريض والكناية، من أمثلته قول الشاعر:

أبوك أب ما زال للناس فوجعا لا عناقهم لأعناقهم نقر كما ينقر الصقر[١٥]

- الإفراط في الصفة، مثال قول إبراهيم ابن العباس الصولى:

كانت لي في صدر يومي صديقة فعلى عهدك أمسيت أم لا[١٦]

- حسن التشبيه كقول امرئ القيس:

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي[١٧]

---

[١٣] نفس المرجع، ص: ٦٣.

[١٤] نفس المرجع، ص: ٦٤.

[١٥] نفس المرجع، ص: ٦٥.

[١٦] نفس المرجع، ص: ٦٦.

[١٧] نفس المرجع، ص: ٦٩.

- لزوم ما يلزم كقول الشاعر:

فصبرا بني بكر على الموت إنني أرى عارضا ينهل بالموت والدم[١٨]

- حسن الابتداء مثل قول النابغة

كليني لهم ياأميمة ناصب دليل اقاسيه بطيء الكواكب[١٩]

فها هي ذا المحسنات الثلاثة عشر منضمة إلى الخمسة التي سماها البديع فتصير المجموعة التي تكلم عنها ابن المعتز في ذلك الكتاب ثمانية عشر نوعا من الصور البديعية، ومما سبق تبين لنا إن ثلاثة من هذه الفنون تعود اليوم من موضوعات علم البيان هي الكناية والاستعارة والتشبيه.

---

[١٨] نفس المرجع، ص: ٧٥

[١٩] نفس المكان

الفصل الثالث

محاسن الكتاب البديع ومأخذه وأثره في الأدب وتأليف البلاغة

إنّ هذا الكتاب إن دلّ على شيء إنما يدل على المستوى العالي للأدب نتيجة إطلاع الكاتب العميق على الكتب الثقفية والأدبية الموجودة إلى عصره كما أنه يدلّ على أنّ صاحبه أي ابن المعتز قد تتلمذ على العلماء العربية وأئمتها . ثمّ إنّ هذا الكتاب من حيث المنهج يمثل دراسة أدبية تطبيقية تكثر فيها شواهيد وتقلّ فيها التعريفات المنطقية وهذا المنهج يفيد كثيرا في تكوين الذوق الأدب وملكة البلاغة. ثمّ إنّ ابن المعتز في عرض الشواهيد من الأحاديث

النبوية وكلام الصحابة والأعراب والشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين[١].

إلي جانب المحاسن وجدها الباحث في هذا الكتاب استطاع البحث أن يضع يده المأخذ الآتية:

١. يؤخذ على ابن المعتز أنه خلط بين ما هو أصيل لا تستغنى عنه العبارة بدونه من غير أن يلاحظ نقص في معناها وبين ما يمكن أن يعد من الترف البياني الذي يستطيع الأديب أن يغفل عنه ولا يقع في إنتاجه نقص في الجمال.

[١] الأستاذ محمد غفران زين العالم، المرجع السابق، ص: ١٠.

٢. كما يؤخذ عليه أنه قد يصرح باستحسان شيء واستقباح آخر دون أن يذكر علة الاستحسان أو الاستقباح.

٣. أنه يفرط في الاعتماد على أمثلة حتى إنه قد يترك سرح معنى اللون البديعى الذي يتركه تاركا للأمثلة توضيح معناها ومن أمثلة ذلك ما فعله في المذهب الكلامي وتأكيد المدح بما يشبه الذم.[٢]

وكان لكتاب البديع أثر بعيد في نفوس الأدباء فأخذوا يبذلون جهودهم ويحصرون مواهبهم في الاستخدام الألوان البديعية في إنتاجهم الأدبي. فكان لعملهم هذا أثره السيء في الأدب الذي طغت عليه الصناعة البديعية حتى أصبح صدى لا أصل له وجسداً لأروح فيه

---

[٢] نفس المرجع، ص: ١٤.

وظلّ هذا قرونا طويلة وظلّ الأدباء أسرى لقيود هذه صناعة وأصبحوا لا يستجدون الكلم إلا بما حوى من الضروب البديعية[٣].

ولم يقف تأثيره عند حدود اللغة الأدبية بل تجاوزها إلى لغة التأليف في العلوم حتى فقدت الحقائق العلمية معالمها بين بريق الألفاظ. وقد استفحل الأمر في العصر الممالك والإطراف بوجه الخاص.[٤]

حين نتحدث عن أثر كتاب البديع لابن المعتز في تعريف البلاغة العربية فإننا نتحدث في نفس الوقت أن تطور البلاغة العربية بعد كتاب البديع.

ترك ابن المعتز لمن بدأه من النقاد والعلماء البلاغة أن يزيد من الحسنات ما شاءوا عندما قال: "فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر

---

[٣] نفس المرجع، ص: ١٠.

[٤] نفس المكان

بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئًا إلي بديع ولم يأتى رأينا فله اختيار"[5] على اثر هذا الكلام أخذ العلماء يزيدون المحسنات ويتوسعون في البديع ويخترعون ألقابا أخرى.

وكان مدلول"البديع" عند ابن المعتز عاما فصفات الحسن وعناصر الجمال لا حدود لها ولا فصل بين فنونها ولم يكن ابن المعتز يعنى من "البديع" أو يفهم منه ما فهمه منه البلاغيون المتأخرون من أنه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على المقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد. وفاتهم أن الأدب فن أو "صناعة" وأن الفن مجال التأنق ومجال إظهار براعة الأديب في اختيار ألفاظه و تنسيقها ونظمها في وضع خاص يحدث جرسا

[5] ابن المعتز المرجع السابق، ص: ٥٨.

موسيقيا أو قوة أو وضوحا أو توكيد لمعانيه و مبالغة فى ابراز أفكاره التي يريد العبارة عنها .[6]

[6] دكتور بدوى تبانة، المرجع السابق، ص: ٩٨.

الفصل الرابع

آراء العلماء البلاغة عن ابن المعتز

عرض الباحث في هذا البحث آراء العلماء البلاغة في ناحية أنه أول مدون للبديع فهذا لابد للباحث أن تفصل في ذلك لمعرفة إلى أي مدى آراء علماء البلاغة عن ابن المعتز فيها .

١. قال الدكتور شوقي ضيف في كتابه:[١] إن ابن المعتز أول من جمع فنون البديع وألف فيها كتابا وهو فضل لا ينكر .

٢. قال الدكتور بدوي طبانة كتابه البيان العربي:[٢] فليس لابن المعتز فضل في هذه التسمية (البديع) أو ذلك الإطلاق ولكن فضله يبدو في أنه أول من جمع فنون البديع ووضحها .

---

[١] شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: ٦٩.

[٢] دكتور بدوي طبانة، المرجع السابق، ص: ٩٥.

٣. وقال الدكتور محمد حسن عبد الله في كتابه مقدمة في النقد الأدبي: "كان البديع أول البلاغة ظهورا في مجال التأليف إذ وضع عبد الله ابن المعتز في أول كتاب تحت عنوان "البديع" في فترة مبكرة.

٤. قال حفني محمد شرف في كتابه ابن أبي الإصبع المصري بين العلماء البلاغة: أن ابن المعتز أول من جمع الألوان البديعية في مؤلف تحت اسم البديع لا أول مخترع.[٤]

هذه هي آراء بعض علماء البلاغة عن ابن المعتز بكتابه البديع أي أنهم موافقون على أنه قد جمع الألوان البديعية في بحث خاص ولم يسبق إلى هذا العمل المتقدمون وهذا القول مشهور.

---

[٣] الدكتور محمد حسن عبد الله، المرجع السابق، ص: ٧٢.

[٤] الدكتور حفني محمد شرف، المرجع السابق ، ص: ٥٦.